الصورة الكلية وتشكلاتها في شعر الرثاء
بين غازي القصيبي وألفريد تنيسون: دراسة مقارنة

إعداد

الباحثة/ ريهام علاء الدين محمد

باحث ماجستير في الآداب تخصص / لغة عربية

تاريخ الاستلام: ٢٠١٩/١١/٢٥م

تاريخ القبول: ٨ /١/٢٠٢٠م

مُلَخَّصُ :

تُعْنَى هَذِهِ الدِّرَاسَةُ بِالْمُقَارَنَةِ بَيْنَ صُورَتَيْ رِيَاحِ الْمَوتِ وَانْكِسَارِ الذَّاتِ عِنْدَ كُلٍّ مِنَ الشَّاعِرَيْنِ غَازِي الْقُصَيبِيّ وَأَلْفِرِيد تِنِيسُون؛ لَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُشَكِّلُ عَلَامَةً بَارِزَةً فِي مَسِيرَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وَلَا نَنْسَي أَنَّ كِلَيْهِمَا يَنْتَمِي إِلَي وَطَنٍ مُخْتَلِفٍ، وَإِلَى لُغَةٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِلَي حِقْبَةٍ غَيْرِ الْأُخْرَى، وَإِلَي مَذْهَبٍ فَنِيٍّ مُسْتَقِلٍّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمَا يَلْتَقِيَانِ عِنْدَ أَشْيَاءَ، وَيَخْتَلِفَانِ فِي غَيْرِهَا اخْتِلَافًا رُبَّمَا يَكُونُ شَدِيدًا، وَرُبَّمَا يَكُونُ يَسِيرًا، وَهُنَا الْاخْتِلَافُ دَلِيلُ قُرْبٍ، وَمَلْمَحُ تَلَاقٍ، وَلَيْسَ وَلِيدَ تَنَاقُضٍ أَوْ إِبْعَادٍ؛ فَهُنَاكَ تَشَابُهٌ وَاضِحٌ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ الشِّعْرِيَّيْنِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّعْبِيرِ عَنِ الْمَوْتِ وَانْكِسَارِ الذَّاتِ؛ إِذْ إِنَّ الْقُصَيْبِيَّ وَتِنِيسُونَ كِلَاهُمَا خَلِيقٌ بِأَنْ يَكْتُبَ فِي فِنِّ الرَّثَاءِ، خَاصَّةً أَنَّ مَحَطَّاتِ الْمَوْتِ عِنْدَ كِلَيْهِمَا جَعَلَتِ الْإِحْسَاسَ بِالْمَوْتِ حَاضِرًا بِشَكْلٍ أَكْثَرَ تَمَيُّزًا فِي شِعْرِهِمَا، وَجَاءَتِ الْقَصِيدَةُ الشِّعْرِيَّةُ عِنْدَ الشَّاعِرَيْنِ بَيْنَ الطُّولِ وَالْقِصَرِ فِي سَبْرِ أَغْوَارِ فَنِّ الرَّثَاءِ؛ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ كِلَا الشَّاعِرَيْنِ رُومَانْسِيٌّ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ رَهَفُ الشُّعُورِ بِالْحُزْنِ، وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا الْوَاقِعِ عَرَضَتِ الْبَاحِثَةُ لِمَوْقِفِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ، وَالشَّاعِرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ مِنْ قَضِيَّةِ الْمَوْتِ، وَخَاصَّةً رِثَاءَ الذَّاتِ، وَلَكِنَّ الْمَوْقِفَ مِنْهُ يَخْتَلِفُ، أَوْ يَتَّفِقُ، تَبَعًا لِعَوَامِلَ كَثِيرَةٍ نَفْسِيَّةٍ وَبِيئِيَّةٍ، مِنْ خِلَالِ دِرَاسَةِ الْبِنَاءِ (اللُّغَوِي وَالْأُسْلُوبِيِّ- الصُّوْرِيِّ- الْإِيقَاعِيِّ)، فَضْلاً عَنْ تِبْيَانِ سِيَاقَاتِ التَّقَارُبِ وَالتَّبَاعُدِ بَينَ الشَّاعِرَينِ.

Abstract

The Study is Concerned with the Comparison between the two images of the winds of death and the grief in each of the poets Ghazi Al-Quseibi and Alfred Tennyson, because both of them represents a major step in his poetic career, and we should not forget that both poets belongs to a different country, different language, different era and have an independent artistic doctrine, however they agree in some things, and disagree in others greatly, the difference that may be severe and may be easy, and this is the difference that will be a proof of similarity. There is a clear similarity between the two poetic works with respect to the expression of death and grief, as both of Al-Quseibi and Alfred Tennyson are ought to have written in the elegiac art, in addition to that both poets are romantic,as indicated the feeling of sadness. From this reality, the researcher presents the position of the Arab poet and English poet about the issue of death, especially the self-elegy. But the attitude towards it differs or agrees according to many psychological and environmental factors, through studying the (linguistic, stylistic, pictorial, rhythmic) structure, as well as showing the contexts of agreement and disagreement between the two poets.

مُقَدِّمَةٌ:

تَتَشَكَّلُ الصُّورَةُ الْكُلِّيَّةُ عِنْدَمَا تَدْخُلُ الصُّوَرُ الْجُزْئِيَّةُ فِي عِلَاقَاتٍ تَكَامُلِيَّةٍ، مُكَوِّنَةً عَنَاقِيدَ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي تَنْتَظِمُ فِي النِّهَايَةِ فِي سِلْكٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي مَعْنًى يُرِيدُ تَقْرِيرَهُ الشَّاعِرُ، أَوْ يُجَسِّدُ إِحْسَاسًا يَوَدُّ إِبْرَازَهُ"[١]؛ إِذْ يُفَرِّقُ النَّقْدُ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الصُّوَرِ؛ نَوْعٍ بَسِيطٍ وَهُو الصُّوَرُ الْجُزْئِيَّةُ الْمُتَنَاثِرَةُ فِي أَبْيَاتِ الْقَصِيدَةِ، وَنَوْعٍ آخَرٍ تَتَآزَرُ فِيهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصُّوَرِ الْجُزْئِيَّةِ؛ لِتُكَوِّنَ مَعًا صُوَرًا كُلِّيَّةً تَكُونُ بِمَنْزِلَةِ لَوْحَةٍ مُتَّسِقَةٍ، تُمَثِّلُ الصُّوَرُ الْجُزْئِيَّةُ تَفَاصِيلَهَا الْمُخْتَلِفَةَ[٢]؛ إِذْ تَتَضَافَرُ الصُّوَرُ الْجُزْئِيَّةُ فِي "بَوْتَقَةِ التَّشْكِيلِ الْجَمَالِيِّ دَاخِلَ الْقَصِيدَةِ؛ لِتَخْلُقَ الصُّورَةَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي تَتَرَكَّبُ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ التَّصْوِيرِيَّةِ؛ لِتُكَوِّنَ لَوْحَةً أَدَبِيَّةً فَنِّيَّةً تَصْوِيرِيَّةً مُتَكَامِلَةً فِي تَنَاسُقٍ وَانْسِجَامٍ، وَمَسْأَلَةُ الْفَصْلِ بَيْنَ الصُّورَةِ الْجُزْئِيَّةِ وَالْكُلِّيَّةِ يَقْتَضِيهِ مَنْهَجُ الْمُقَارَبَةِ النَّقْدِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي تَفْكِيكَ النُّصُوصِ إِلَى وِحْدَاتِهَا الْأَوَّلِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْكَشْفِ عَنْ جَمَالِيَّتِهَا كُلًّا عَلَى حِدَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ تَجْمِيعُهَا مِنْ جَدِيدٍ فِي نَسَقٍ جَمَالِيٍّ مُتَكَامِلٍ"[١].

وَتُعَرَّفُ الصُّورَةُ الْكُلِّيَّةُ بِأَنَّهَا هِيَ:"تِلْكَ الْفِكْرَةُ الْعَامَّةُ، وَالرَّئِيسَةُ الْمُجَسَّدَةُ فِي شَكْلِ الْقَصِيدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ كُلٌّ لَا يَتَجَزَّأُ، وَلَا يَنْقَسِمُ؛ فَالصُّوَرُ فِي الْعَمَلِ الْفَنِّي هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ إِيقَاعَاتٍ كُلُّهَا تَعْرِفُ لَحْنًا وَاحِدًا هِيَ فِكْرَةُ الْقَصِيدَةِ الْكُلِّيَّةِ"[٢].

وَ"كَانَ الشَّاعِرُ التَّقْلِيدِيُّ يَكْتَفِي بِالصُّورَةِ الْجُزْئِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِوِحْدَةِ الْبَيْتِ؛ أَمَّا الشَّاعِرُ الْحَدِيثُ فَقَدِ اخْتَارَ الصُّورَةَ الْكُلِّيَّةَ الْمُكَوِّنَةَ مِنْ مَجْمُوعٍ مِنَ الصُّوَرِ الْمُتَنَاثِرَةِ، وَالْمُوَحَّدَةِ نَفْسِيًّا، وَمَعْنَوِيًّا، وَإِيحَائِيًّا فِي آنٍ وَاحِدٍ"[٣].

فَالصُّورَةُ الشِّعْرِيَّةُ مَا هِيَ إِلَّا "عَمَلٌ تَرْكِيبِيٌّ يَتَكَوَّنُ مِنْ جُزْئِيَّاتٍ، وَمِنْ هَذِهِ الْوِحْدَاتِ الْجُزْئِيَّةِ تُؤَلَّفُ الصُّورَةُ الْكُلِّيَّةُ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ الْكُلِّيَّةُ جَدِيدَةٌ كُلُّ الْجِدَّةِ، وَتَخْتَلِفُ عَنِ الصُّورَةِ الْجُزْئِيَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُجُودٌ مِنْ قَبْلُ فِي عَالِمِ الْوَاقِعِ وَالطَّبِيعَةِ"(٤)؛ لَأَنَّ الْقَصِيدَةَ النَّاجِحَةَ كَمَا يَقُولُ (دَاي لُوِيس) "هِيَ الَّتِي يَلْتَئِمُ فِيهَا شَمْلُ عَدَدٍ مِنَ التَّجَارِبِ الْجُزْئِيَّةِ الَّتِي لَا يَرْبِطُهَا أَصْلًا كَبِيرُ صِلَةٍ بَعْضَ مُشَاهَدَاتِ الشَّاعِرِ، وَأَفْكَارِهِ، وَمُطَالَعَاتِهِ، وَإِرْهَاصَاتِهِ الْعَاطِفِيَّةِ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عَلَى نَهْجٍ يَفْقِدُ كُلٌّ مِنْهَا ذَاتِيَّتَهَا، وَانْعِزَالَهَا، وَجُزْئِيَّاتِهَا، وَيَسْتَوْعِبُهَا، وَمَعْنَاهَا عِنْدَنَا أَكْبَرُ مِنْ مَجْمُوعِ أَجْزَائِهَا، وَنَحْنُ نَحْكُمُ عَلَى قَصِيدَةٍ مَا بِالْجَوْدَةِ، وَنَشْعُرُ أَنَّهَا تُرْضِينَا عِنْدَمَا تُعْطِينَا إِحْسَاسًا بِأَنَّهَا شَيْءٌ كَامِلٌ؛ شَيْءٌ تَامٌّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ أَيُّ شَيْءٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْزَعَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ دُونَ النَّيْلِ مِنْ قِيمَتِهِ، أَوْ حَتَّى الذِّهَابِ بِحَيَاتِهِ"(١).

وَمِنْ عِنَاصِرِ الصُّورَةِ الْكُلِّيَّةِ اللَّوْنُ؛ فَلَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ؛ فَاللَّوْنُ عُنْصُرٌ مِنْ عَنَاصِرِ الْمُعْجَمِ الشِّعْرِيِّ، تَفَاوَتَ الشُّعَرَاءُ فِي اسْتِخْدَامِهِ، وَفِي الْقُدْرَةِ عَلَى تَوْظِيفِهِ فَنِّيًّا (عَلَى أَنَّ أَهَمِّيَّةَ التَّنَاوُلِ تَتَعَدَّى مُجَرَّدَ ذِكْرِ اللَّوْنِ إِلَى أَهَمِّ مِنْ ذَلِكَ وَأَجْدَى؛ حَيْثُ يُوْقِفُنَا هَذَا التَّنَاوُلُ عَلَى الدَّلَالَاتِ الْخَفِيَّةِ، أَوِ الْوَاضِحَةِ لِذِكْرِ اللَّوْنِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَيَّةَ مُحَاوَلَةٍ لِلْوُقُوفِ عَلَى طَرِيقَةِ الشَّاعِرِ فِي اسْتِخْدَامِ الْأَلْوَانِ لَا تَنْصَبُ الْعِنَايَةُ فِيهَا عَلَى الْكَلِمَةِ فِي ذَاتِهَا مَعْزُولَةً عَنِ السِّيَاقِ الْعَامِّ لِلنَّصِّ، إِذْ يَعْنِي ذَلِكَ إِجْرَاءَ مُحَاوَرَاتٍ غَيْرِ مُثْمِرَةٍ مَعَ أَلْفَاظٍ مُعْجَمِيَّةٍ ذَاتِ دَلَالَاتٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْصُورَةٍ فِي نِطَاقِ مَدْلُولِهَا فِي ذَاتِهَا، كَمَا أَنَّهُ يُفْقِدُ الْكَلِمَةَ كَثِيرًا مِنْ عَطَائِهَا النَّاتِجِ عَنْ مُحَاوَرَتِهَا غَيْرِهَا مِنَ الْكَلِمَاتِ، أَوْ تَحَاوُرِهَا مَعَهَا فِي عَطَاءٍ لُغَوِيٍّ مُفِيدٍ، تَكُونُ الْكَلِمَةُ فِيهِ جُزْءًا مِنْ كُلٍّ، ضِمْنَ عَمَلٍ فَنِّيٍّ مُتَكَامِلٍ فِي وِحْدَةٍ فَنِّيَّةٍ، ذَاتِ إِيحَاءٍ خَصْبٍ مِعْطَاءٍ)(١).

وَقَدِ اسْتَخْدَمَ "غَازِي الْقُصَيْبِيُّ" فِي دِيوَانِهِ "حَدِيقَةِ الْغُرُوبِ" مِنَ الْأَلْوَانِ: (الْأَسْوَدِ- الْأَحْمَرِ- الْأَبْيَضِ- الْأَخْضَرِ- الْأَصْفَرِ- الْأَزْرَقِ)؛ مُوَظِّفًا إِيَّاهَا تَوْظِيفًا فَنِّيًا ذَا دَلَالَةٍ، وَالْحَقُّ أَنَّ أَرْوَعَ مَظَاهِرِ التَّجْرِبَةِ الْفَنِّيَّةِ عِنْدَ شَاعِرِنَا تَتَمَثَّلُ فِي الصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ الَّتِي لَا تَجِيءُ (جُزْئِيَّةً) مَبْتُورَةً؛ بَلْ تَجِيءُ (كُلِّيَّةً) تُصَوِّرُ الْمَوْقِفُ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَمِنَ الصُّوَرِ الْكُلِّيَّةِ الْمُحْكَمَةِ نَسْجًا، وَالْمُتَنَوِّعَةِ مِنْ حَيْثُ وَسَائِلِ تَشْكِيلِهَا، قَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ "حَدِيقَةِ الْغُرُوبِ"(٢):

أَمَا تَعِبْتَ مِنَ الأَعْدَاءِ.. مَا بَرِحُوا ... يحُاوِرُونَكَ.. بالْكَبْرِيتِ وَالنَّارِ

مَاذَا أَقُولُ؟ وَدَدْتُ الْبَحْرَ قافِيَتِي ... وَالْغَيمَ مَحْبَرَتِي.. وَالأُفْقَ أَشْعَارِي

هَذِي حَدِيقَةُ عُمْرِي فِي الْغُرُوبِ كَمَا ... رَأَيتِ.. مَرْعَى خَرِيفٍ جَائِعٍ ضَارِ

الَطَّيرُ هَاجَرَ.. وَالأَغْصَانُ شَاحِبَةٌ ... وَالْوَرْدُ أَطْرَقَ يَبْكِي عَهْدَ آذَارِ

وَإِنْ مضَيتُ فَقُولِي: لَمْ يَكُنْ بَطَلًا ... وَكَانَ طِفْلِي.. وَمَحْبُوبِي.. وَقِيثارِي

يُلَاحِظُ قَارِئُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّ الشَّاعِرَ يُدِيرُ مَعَانِيهَا الْمُخْتَلِفَةِ حَوْلَ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِي رِثَاءُ ذَاتِهِ، وَيُلَاحَظُ كَذَلِكَ أَنَّ الْخَيْطَ الْعُضْوِيَّ مَا زَالَ يَرْبِطُ كُلَّ جُزْئِيَّةٍ بِأُخْرَى، "فَلَيْسَ هُنَاكَ انْقِطَاعٌ فِي الرُّؤْيَةِ الشِّعْرِيَّةِ، أَوْ فِي الْحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ، أَوِ الْأَثَرِ الَّذِي نَحْسَبُهُ"(٣)؛ فَقَدْ وَظَّفَ غَازِي الْقُصَيْبِيُّ اللَّوْنَ، وَالْحَرَكَةَ، وَالصَّوْتَ فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ فِي لَوْحَةٍ فَنِّيَّةٍ تَكْسُوهَا مِسْحَةُ الْأَلَمِ وَالْحُزْنِ؛ فَاسْتَخْدَمَ اللَّوْنَ الْأَحْمَرَ"فَهُو لَوْنٌ يُسَبِّبُ خَفْقًا دَمَوِيًّا، وَتَنَفُّسًا أَعْمَقَ، إِنَّهُ لَوْنُ الْحَرَكَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ، فَهُو ذُو تَأْثِيرٍ قَوِيٍّ عَلَى طِبَاعِ وَمِزَاجِ الْإِنْسَانِ"(٤) فِي لَفْظَتَي (النَّارِ، وَالْغُرُوبِ)؛ لِيَصِفَ بِهِ مَدَى الْأَلَمِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ فِي مُحَارَبَةِ

الْأَعْدَاءِ لَهُ بِالْكَبْرِيتِ وَالنَّارِ، وَعُمْرُهُ الَّذِي أَشْبَهَ بِوَقْتِ الْغُرُوبِ قَاصِدًا بِهِ وَقْتَ رَحِيلِهِ عَنِ الدُّنْيَا؛ أَي أَنَّ نِهَايَتَهُ أَصْبَحَتْ أَكْثَرَ حَرَارَةٍ مِنْ بِدَايَتِهِ الْمُشْرِقَةِ؛ فَهُو لَوْنٌ لَهُ دَلَالَاتٌ عَمِيقَةٌ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ، وَتُثِيرُ فِي الْقَارِئِ إِيْحَاءَاتٍ نَفْسِيَّةً لَا شُعُورِيَّةً نَحْوَ الْحُزْنِ وَالْأَسَى، وَاللَّوْنُ الْأَزْرَقُ فِي لَفْظَةِ (الْبَحْرِ) أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يُخْبِرَنَا بِمَا يَحْتَاجُهُ مِنْ هُدُوءٍ وَرَاحَةٍ تُسْتَمَدُّ مِنَ الْبَحْرِ مُفْتَقِدًا لِذَلِكَ فِي كِبَرِهِ شَاعِرًا بِفَجْوَةٍ كَبِيرَةٍ يُعَانِيهَا، وَاللَّوْنُ الْأَسْوَدُ فِي لَفْظَةِ (مِحْبَرَتِي)، وَمَا لِهَذَا اللَّوْنِ مِنْ دَلَالَاتِ حُزْنٍ وَمَوْتٍ وَاكْتِئَابٍ، وَتَشَاؤُمٍ، وَقَدْ جَاءَتِ الدَّلَالَاتُ الْإِيحَائِيَّةُ قَرِيبَةً التَّنَاوُلِ، وَلَمْ تَعْتَمِدْ عَلَى الْانْزِيَاحَاتِ الْبَعِيدَةِ، وَالْجِدَّةُ فِي هَذِهِ الدَّلَالَاتِ هِي سَيْطَرَةُ دَلَالَةِ الْحُزْنِ وَالْاكْتِئَابِ؛ وَاللَّوْنُ الْأَصْفَرُ فِي لَفْطَتَي (خَرِيفٍ، شَاحِبَةٍ) دَلِيلٌ عَلَى اقْتِرَابِ الْأَجَلِ، أَمَّا الْحَرَكَةُ فَجَاءَتْ فِي قَوْلِهِ:(يُحَاوِرُونَكَ، الطَّيْرُ هَاجَرَ)، وَالصَّوْتُ تَمَثَّلَ فِي قَوْلِهِ (الْوَرْدُ أَطْرَقَ يَبْكِي، قَيْثَارَى)، وَهُو فِي ذَلِكَ يُحَاوِلُ أَنْ يُقَرِّبَ الصُّورَةَ مِنْ ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي وَخَيَالِهِ بِكُلِّ السُّبُلِ، وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ "بَدْرِ الرِّيَاضِ"[1]:

وَلَاحَ لِي بَدْرٌ الرِّيَاضِ شَاحِبًا

عُيُونُهُ مَنَاجِمُ الدُّمُوعْ

وَوَجْهُهُ خَارِطَةُ الْكَدَرْ

يُلَاحَظُ أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ فِي تَصْوِيرِهِ لِبَدْرِ الرِّيَاضِ، وَلَكِنَّهَا مُرْتَبِطَةً بِمَا بَعْدَهَا، وَلَيْسَ هَذَا يَعْنِي أَنَّنَا نَقْصِدُ بِالْجُزْئِيَّاتِ وَصْفَ أَجْزَاءٍ (عُيُونٍ- وَوَجْهِهِ) فِي جِسْمٍ وَاحِدٍ مَوْصُوفٍ، وَإِنَّمَا هِي أَجْزَاءٌ عُضْوِيَّةٌ فِي جِسْمِ الْقَصِيدَةِ، وَكَأَنَّهَا

لَوْحَـةٌ تُصَـوِّرُ جُـزْءًا مِـنْ نَـصٍّ كَامِـلٍ لَا يَحْمِـلُ فِـي أَفْكَـارِهِ غَيْـرَ فِكْـرَتَيْنِ: أَوَّلُهُمَـا وَصْـفُ الْيَـأْسِ وَالْحُـزْنِ الْمُسَـيْطِرِ عَلَـى شَـاعِرِنَا، وَثَانِيهُمَـا مَـا جَـاءَ فِـي اللَّوْحَـةِ مِـنْ صُـورَةِ الْبَـدْرِ الشَّـاحِبِ، وَمَنَـاجِمِ الـدُّمُوعِ، وَهِـي مَـا ضَـمَّتْ فِكْـرَةَ امْتِـدَادِ صُـورَةِ بَـدْرِ الرِّيَـاضِ بِـالتَّلَاؤُمِ مَـعَ السِّـيَاقِ الْكُلِّـيِّ لِوَصْـفِ الْأَسَـى؛ مُسْـتَخْدِمًا لَـوْنَيْنِ يُعَبِّـرَانِ عَـنْ هَـذَا، وَهُمَـا اللَّـوْنُ الْأَصْـفَرُ فِـي لَفْظَـةِ (شَـاحِبًا)، وَاللَّـوْنُ الْأَسْـوَدُ فِـي لَفْظَـةِ (مَنَـاجِمَ)؛ فَكُـلٌّ مِـنَ اللَّـوْنَيْنِ الْأَصْـفَرِ وَالْأَسْـوَدِ مِـنَ التَّرْكِيـبِ الْإِضَـافِيِّ الَّـذِي صَـنَعَهُ الشَّـاعِرُ؛ لِيُـوحِي لَنَـا بِـالْمَوْتِ مَـعَ سَـيْطَرَتِهِ عَلَـى كُـلِّ الْأَشْـيَاءِ، وَهُـو فِـي هَـذِهِ الصُّـورَةِ أَيْضًـا، يُـولِي الْحَرَكَـةَ أَهَمِّيَّـةً كُبْـرَى فِـي تَشْـكِيلِهَا؛ بِهَـدَفِ إِضْـفَاءِ نَـوْعٍ مِـنَ الْفَعَالِيَّـةِ وَالتَّـوَتُّرِ عَلَى النَّسِيجِ الشِّعْرِيِّ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ[٢]:

تَنَهَّـــــدَ الْبَـــــدْرُ.. وَغَـــــابَ

فِـــــي سَـــــحَابَةِ الْأَحْـــــزَانْ

وَعُـــدْتُ وَحْـــدِي .. لِلسَّـــهَرْ

وَهَـذِهِ صُـورَةٌ نَفْسِـيَّةٌ تَتَمَثَّـلُ فِـي التَّعْبِيـرِ عَـنْ حَالَـةٍ مِـنْ حَـالَاتِ الـنَّفْسِ لَـدَى الشَّـاعِرِ الْحَـزِينِ، خَاصَّـةً أَنَّ هُنَـاكَ مِـنَ النُّقَّـادِ مَـنْ أَوْلَـى الْبُعْـدَ النَّفْسِـيَّ أَهَمِّيَّـةً عُظْمَـى فِـي تَشْـكِيلِ الصُّـورَةِ الْفَنِّيَّـةِ وَبَلْوَرَتِهَـا؛ "فَالصُّـورَةُ فِـي الشِّـعْرِ لَيْسَـتْ إِلَّا تَعْبِيـرًا عَـنْ حَالَـةٍ نَفْسِـيَّةٍ مُعَيَّنَـةٍ يُعَانِيهَـا الشَّـاعِرُ، إِزَاءَ مَوْقِـفٍ مُعَـيَّنٍ مِـنْ مَوَاقِـفِ الْحَيَـاةِ"[١]، بَـلْ يَـذْهَبُ الـدُّكْتُورُ مُحَمَّـدُ غِنِيمِـي هِـلَالٍ إِلَـى مَـا هُـو أَبْعَـدُ مِـنْ ذَلِـكَ، عِنْـدَمَا يَجْعَـلُ مِـنَ ارْتِبَـاطِ الصُّـورَةِ بِبُعْـدٍ نَفْسِـيٍّ، مِعْيَـارًا لِلصِّـدْقِ، وَرُقِـيِّ التَّشْـكِيلِ، فَيَقُولُ:"كُلَّمَـا كَانَـتِ الصُّـورَةُ أَكْثَـرُ ارْتِبَاطًـا بِشُـعُورِ الشَّـاعِرِ كَانَـتْ أَقْـوَى صِـدْقًا، وَأَعْلَـى فَنًّـا"[٢]. وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ "دَمْعِ الْخَيْلِ"[٣]: (بَحْرُ الْكَامِلِ)

يَا مَنْ طَوَى الْأَيَّامَ..بَرْقًا خَاطِفًا كَالْمُهْرِ.. يَلْهَثُ فِي خُطَاهُ شِهَابُ

هُنَا تَبْلُغُ حُرِّيَّةُ التَّخَيُّلِ مَدَاهَا لَدَى غَازِي الْقُصَيْبِيّ، بِوَصْفِهِ شَاعِرًا حَزِينًا عَنْ طَرِيقِ حِيلَةٍ فَنِّيَّةٍ جَمِيلَةٍ هِي تَحَقُّقُ الصُّوَرِ الشِّعْرِيَّةِ، وَهُو فِي هَذِهِ الصُّورَةِ يُوْلِي الْحَرَكَةَ وَاللَّوْنَ أَهَمِّيَّةً كُبْرَى فِي تَشْكِيلِهَا؛ فَالْحَرَكَةُ كَانَتْ فِي لَفْظَتَي (طَوَى– يَلْهَثُ)؛ لِيَعْرِضَ مِنْ خِلَالِهَمَا الصُّورَةَ الشِّعْرِيَّةَ، لَكِنَّ الْإِيحَاءَ يُهَيْمِنُ فِي طَيِّ الْأَيَّامِ، أَمَّا اللَّوْنُ فَقَدْ تَمَثَّلَ فِي لَفْظَةِ (بَرْقًا) وَهُو اللَّوْنُ الْأَبْيَضُ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَكْثَرِ الْأَلْوَانِ حَسَاسِيَّةً فِي شِعْرِ غَازِي؛ إِذْ يَمْتَازُ بِشِدَّةِ تَأَثُّرِهِ بِأَدَقِّ الْأُمُورِ الَّتِي مَضَتْ مَعَ رَفِيقِهِ "أَحْمَدَ بْنِ سَلْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ"، وَيُعَدُّ ذَلِكَ امْتِدَادًا لِمَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَلَمٍ، يَلِيهِ امْتِدَادٌ لِصُورَةِ الْمَاضِي الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي مُضِيِّ الْأَيَّامِ كَالْبَرْقِ سَرِيعَةً؛ لِتَقَعَ صُورَةُ الْأَيَّامِ نُقْطَةً رَئِيسَةً يُمَثِّلُهَا الْأَلَمُ وَعَدَمُ انْقِضَائِهِ، وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ "مَحْسُونَ"[1]: (بَحْرُ الطَّوِيلِ)

أُسَائِلُ هَذَا الْقَبْرَ :"كَيْفَ ضَمَمْتَهُ؟ أَمَا كَانَ كَالْبَرْكَانِ..يَعْلُو..وَيَخْمُدُ؟

فَالشَّاعِرُ هُنَا يَرْسِمُ صُورَةً مُفْعَمَةً بِالْحُزْنِ وَالْأَسَفِ تُعَبِّرُ عَنْ ثَوْرَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَقَلْبِيَّةٍ؛ فَالْعَقْلُ لَا يُصَدِّقُ مَا يَرَاهُ مِنْ حَادِثٍ، وَالْقَلْبُ لَا يَتَحَمَّلُ الْفَاجِعَةَ، وَيُلْحَظُ أَنَّهُ "جُزْئِيَّةٌ" مِنَ الْوَصْفِ، وَلَكِنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلَهَا، وَبِمَا بَعْدَهَا مِنْ وَصْفٍ شَامِلٍ؛ فَمَوْتُ رَفِيقِهِ يُمْكِنُ أَنْ نُشَبِّهَهُ بِبُؤْرَةِ التَّشْكِيلِ الْمُوَحَّدِ لِأَطْرَافِ الصُّورَةِ؛ فَالْحَرَكَةُ تَمَثَّلَتْ فِي (ضَمَمْتُهُ– يَعْلُو– يَخْمُدُ)، وَاللَّوْنُ تَمَثَّلَ فِي (الْبُرْكَانِ)؛ حَيْثُ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ؛ فَلَقَدْ أَثَّرَ هَذَا اللَّوْنُ بِدَلَالَتِهِ الْحَارَّةِ، وَالْمُتَوَهِّجَةِ عَلَى نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ، وَجَعَلَهُ ظَامِئًا مُتَلَهِّفًا لِلِقَاءِ رَفِيقِهِ، وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ قَدْ أَثْرَى عَنَاصِرَ الصُّورَةِ حِينَ جَعَلَ كُلَّ الْمُعْطَيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الصُّورَةِ تَدُورُ فِي مِحْوَرِ إِظْهَارِ الْحُزْنِ، وَقَوْلُهُ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ "عَادِلٍ"[2]: (بَحْرُ الطَّوِيلِ)

أَخِي! رُبَّ جُرْحٍ فِي الْأَضَالِعِ لَا يَهْدَا أُعَانِقُهُ .. وَاللَّـــيْلُ يُمْطِرُنـــي سُهْدَا

وَأَسْتَصْرِخُ الذِّكْرَى فَتَسْكُبُ صَابَهَــا وَيَا طَالَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ نَبْعِهَا الشَّهْدَا

فِــي هَـذِهِ الصُّـورَةِ الشِّـعْرِيَّةِ يَسْـتَطِيعُ الْقَـارِئُ اسْـتِنْتَاجَ الْفِكْـرَةِ الَّتِـي تَـدُورُ حَوْلَهَـا عَنَاصِـرُ اللَّوْحَـةِ ضِـمْنَ سِـيَاقِ الْوَصْـفِ أَلَا وَهِـي إِظْهَـارُ أَلَمِـهِ وَجُرْحِـهِ عَلَـى أَخِيـهِ، وَتَحَمُّلِـهِ مَـا لَـمْ يَتَحَمَّلْـهُ غَيْـرُهُ، مُؤَيِّـدًا تِلْـكَ الصُّـورَةَ بِبَقِيَّـةِ عَنَاصِـرِهَا، وَتَظْهَـرُ بَرَاعَـةُ الشَّـاعِرِ فِـي الْوَصْـفِ فِـي تَوْظِيفِـهِ لِلصَّـوْتِ الَّـذِي جَـاءَ مُوَضِّـحًا صَـرَخَاتِهِ، وَآهَاتِـهِ عَلَـى فِـرَاقِ أَخِيـهِ؛ وَذَلِـكَ فِـي قَوْلِـهِ: (وَأَسْتَصْـرِخُ) الَّتِـي تَتْـرُكُ أَثَـرًا لَـهُ دَلَالَاتٌ مُتَعَـدِّدَةٌ تَرْمُـزُ إِلَـى رَغْبَتِـهِ فِـي إِعَـادَةِ وِصَـالِ تِلْـكَ الْأَيَّـامِ الَّتِـي قَضَـاهَا مَـعَ أَخِيـهِ، كَالْحَرَكَـةِ الَّتِـي تَمَثَّلَـتْ فِـي قَوْلِـهِ (يُمْطِرُنِـي– تَسْـكُبُ– اسْتَسْـقَيْتُ)، وَكَـاللَّوْنِ الَّـذِي تَمَثَّـلَ فِـي قَوْلِـهِ:(جُرْحٌ – اللَّيْـلُ)؛ حَيْـثُ اللَّـوْنُ الْأَحْمَـرُ، وَهُـو لَـوْنُ الْجُـرْحِ، وَالْأَلَـمِ، وَالْبُكَـاءِ، أَمَّـا اللَّـوْنُ الْأَسْـوَدُ" فَهُـو لَـوْنٌ يُعَبِّـرُ تَعْبِيـرًا صَـادِقًا عَـنْ ظَـلَامِ اللَّيْـلِ وَأَسْـرَارِهِ .. وَالْوَحْشَـةِ"[٣]، فَضْـلًا عَـنْ أَنَّـهُ لَـوْنُ الْوِحْـدَةِ، وَالْفِـرَاقِ، وَالْمَـوْتِ، يُسْـهِمُ كُـلُّ ذَلِـكَ فِـي بِنَـاءِ الصُّـورَةِ، وَتَصْـوِيرِ الْمَشْـهَدِ لِلْمُتَلَقِّـي، وَلَعَـلَّ كُـلَّ تِلْـكَ الـدَّلَائِلِ الَّتِـي تُعْطِيهَـا اللَّوْحَـةُ الْكُلِّيَّـةُ تُلَائِـمُ السِّـيَاقَ الْعَـامَّ لِلـنَّصِّ كَـامِلًا، وَقَوْلُـهُ فِـي رِثَـاءِ رَفِيقِـهِ أَحْمَـدَ بْـنِ مُحَمَّدٍ آلِ خَلِيفَةَ الْمُلَقَّبِ بِـ"شَاعِرِ الْبَحْرَيْنِ"[١]: (بَحْرُ الْبَسِيطِ)

وَكَانَ شِعْرِي بَحْرًا.. فِي تَدَفُّقِـــهِ فَصَـــارَ شِعْرِي صَخْرًا..فِي تَأَبِّيهِ

تَغَيَّرَ النَّاسُ.. إِلَّا شَاعِرًا غُـــرْدًا شَـــابَ الرَّبِيعُ.. وَمَا شَابَتْ قَوافِيهِ

وَقَـدْ وَظَّـفَ الشَّـاعِرُ الصَّـوْتَ فِـي لَفْظَـةِ (غُـرْدًا)، وَوَظَّـفَ الْحَرَكَـةَ فِـي لَفْظَتَـي (تَدَفُّقِـهِ– تَأْبِيـهِ)، وَاللَّـوْنَ فِـي لَفْظَتَـي (الْبَحْـرُ – الصَّـخْرُ)؛ لِيَخْـدِمَ فِكْرَتَـهُ

الرَّئِيسَةَ فِي تَصْوِيرِ مَأْسَاتِهِ مُحَاوِلًا رَبْطَ أَفْكَارَ السِّيَاقِ الْكُلِّيِّ لِلصُّورَةِ بِالسِّيَاقِ الْكُلِّيِّ لِلنَّصِّ، وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَ السِّيَاقُ الْعَامُّ لِلنَّصِّ، وَهُو حُزْنُهُ عَلَى فِرَاقِ صَدِيقِهِ، كَأَنَّهُ يَعْرِضُ لَنَا قِصَّةً، تَعَاوَنَتْ فِيهَا الصُّوَرُ الْبَسِيطَةُ؛ لِرَسْمِ الْمَشْهَدِ التَّمْثِيلِيِّ، وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ "لَكَ الْحَمْدُ"(٢):

لَكَ الْحَمْدُ! وَالْأَفْرَاحُ تَرْقُصُ فِي دَمِي لَكَ الْحَمْدُ! وَالْأَتْرَاحُ تَعْصِفُ فِي صَدْرِي

لَكَ الْحَمْدُ! وَالْأَحْبَابُ فِي كُلِّ سَامِرٍ لَكَ الْحَمْدُ! وَالْأَحْبَابُ فِي وَحْشَةِ الْقَبْرِ

وَلَعَلَّ هَذِهِ اللَّوْحَةَ الْمُمْتَدَّةَ الْوَارِدَةَ فِي سِيَاقِ الْوَصْفِ كَانَتِ الْفِكْرَةَ الَّتِي تَصِحُّ أَنْ تَجْمَعَ أَبْيَاتَ الْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَيْهَا، وَهِي (الْحَمْدُ للهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ)؛ فَاتَّضَحُ السِّيَاقُ الْعَامُّ الَّذِي بَرَزَتْ فِيهِ الصُّورَةُ بَيْنَ الْفِكْرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحَدَّثَ عَنْهُمَا فِي قَصِيدَتِهِ أَلَا وَهُمَا: (الْأَفْرَاحُ – وَالْأَحْبَابُ فِي كُلِّ سَامِرٍ)، وَ(الْأَتْرَاحُ – وَالْأَحْبَابُ فِي وَحْشَةِ الْقَبْرِ) الَّذِي ضَمَّ فِيهِمَا الشَّكْلَ الَّذِي أَرَادَهُ فِي رَسْمِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ؛ لِيَتَعَدَّى كُلَّ مَعَانِي الْمَوْتِ الَّتِي قَدْ تَطْرَأُ عَلَى مَعَانِيهِ؛ فَيَنْفِيهَا بِالثَّنَاءِ وَتَوْجِيهِ الشُّكْرِ، وَالْحَمْدِ إِلَى اللهِ فِي كُلِّ حِينٍ، وَفِي كُلِّ حَالٍ، فَكَانَ اتِّبَاعُ الْوَصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ ثَمَّ اسْتِكْمَالًا لِجَمْعِ الْأَضْدَادِ الْوَارِدَةِ فِي اللَّوْحَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَلْفَاظِ؛ إِذْ لَا يَنْفِي الْأَوَّلُ وُجُودَ الثَّانِي وَالْعَكْسُ، وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ "يَا أَعَزَّ الرِّجَالِ"(١):

يَا أَعَزَّ الرِّجَالِ! يَعرِفُ قَلْبِي أَنَّ حِمْلَ الْفِرَاقِ عِبْءٌ ثَقِيلُ

وَلَيَالِيهِ مُوْحِشَاتٌ.. شُكُولُ وَأَمَاسِيهِ .. رَنَّةٌ .. وَعَوِيلُ

وَتَأَمَّلْتُنِي .. وَقُلْتَ: تَجَلَّدْ! لَا أَطِيقُ الدُّمُوعَ حِينَ تَسِيلُ

هَذِهِ سُنَّةُ الْحَيَاةِ .. غُرُوبٌ وَشُرُوقٌ .. وَمَنْزِلٌ.. وَرَحِيلُ

وَقَدْ كَانَ الْوَصْفُ عِنْدَ شَاعِرِنَا أَبْرَزَ أُسْلُوبٍ انْتَهَجَهُ؛ لِيَضْمَنَ مَعَانِي كَثِيرَةً شَمَلَتْهَا أَبْيَاتُ لَوْحَاتِهِ الْوَصْفِيَّةِ، وَقَدْ بَدَأَ الْحَدِيثُ بِهَا كَوْنَهَا أَوْسَعَ بَابٍ فِي قَصَائِدِهِ، فَجَاءَتِ الْأَبْيَاتُ فِي سِيَاقِ الْوَصْفِ مِنْ بَابِ إِظْهَارِ حُزْنِهِ، فَكَانَتْ تَحْكِي فِكْرَةً وَاحِدَةً تَعُمُّ جَمِيعَ عِنَاصِرِهَا، وَهِيَ إِظْهَارُ أَثَرِ فِرَاقِ رَفِيقِهِ عَلَيْهِ؛ فَالْأَفْكَارُ فِي النَّصِّ كَانَتْ تَدُورُ فِي مَحَاوِرَ ثَلَاثَةٍ: أَوَّلُهَا الْوِحْدَةُ وَالْفِرَاقُ الَّذِي يَعِيشُهُ شَاعِرُنَا، وَثَانِيهَا وَصْفُهُ لِظُلْمَةِ وَوَحْشَةِ اللَّيَالِي الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِمَوْتِ رَفِيقِهِ، وَثَالِثُهَا وَصْفُهُ لِسُنَّةِ الْحَيَاةِ، وَيَقِينُهُ بِأَنَّ الْكُلَّ لَا مَحَالَةَ رَاحِلٌ، وَهَذِهِ اللَّوْحَةُ جَاءَتْ مُحَمَّلَةً بِالصَّوْتِ، وَالْحَرَكَةِ، وَاللَّوْنِ؛ حَيْثُ تَمَثَّلَ الصَّوْتُ فِي لَفْظَتَيْ (رَنَّةٍ– عَوِيلٍ)، وَتَمَثَّلَتِ الْحَرَكَةُ فِي لَفْظَةِ (تَسِيلُ)، وَتَمَثَّلَ اللَّوْنُ فِي لَفْظَتَيْ (غُرُوبٍ – شُرُوقٍ)، وَهُمَا اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ، وَاللَّوْنُ الْأَصْفَرُ، وَ"يَتَعَلَّقُ ذَلِكَ بِالصُّورَةِ الْبَصَرِيَّةِ؛ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ وَصْفِ الْأَشْيَاءِ الْمُحِيطَةِ بِهِ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْحَاسَّةِ مَعَ إِضْفَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْخَيَالِ، وَالْعَاطِفَةِ، وَمِنْ ثَمَّ يَجْعَلُ الْمُتَلَقِّي يُشَاهِدُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الْكَلِمَاتُ الشِّعْرِيَّةُ"[1]، وَتَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ الْعَاطِفَةِ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ، وَجَعْلِهَا أَكْثَرَ عُذُوبَةً؛ فَهِيَ تَمَكِّنُ الْأَدِيبَ مِنْ أَنْ "يَنْقُلَنَا إِلَى جَوٍّ عَاطِفِيٍّ نَحْنُ فِيهِ إِلَى جَوٍّ آخَرٍ أَرَادَهُ لَنَا...فَإِذَا كَانَ لَنَا مَيْلٌ فَقَوَّى مَيْلَنَا، أَوْ خَلَقَ فِينَا مَيْلًا جَدِيدًا، وَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا حَازِمًا فَضَعْضَعَهُ، أَوْ مُضَعْضَعًا فَحَزَمَ رَغَبَاتَهُ وَثَبَّتَهُ؛ كَانَ ذَا عَاطِفَةٍ قَوِيَّةٍ مُهَيَّجَةٍ"[1]، وَلَابُدَّ لِلْعَاطِفَةِ مِنْ أَنْ تَكُونَ صَادِقَةً وَمُعَبِّرَةً عَمَّا يَخْتَلِجُ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ مِنْ أَحَاسِيسَ وَمَشَاعِرَ؛ لِيَنْشُدَ شِعْرًا صَادِقًا يَحْظَى بِقَبُولِ الْمُتَلَقِّي وَاسْتِحْسَانِهِ، وَنَجِدُ هَذِهِ السِّمَةَ بَارِزَةً فِي شِعْرِ غَازِي الْقُصَيْبِيِّ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي قَصِيدَةِ "سَيِّدَتِي السَّبْعُونَ"[2]:

أَوَّاهُ! سَيِّدَتِي السَّبْعُونَ! مَعْذِرَةً إِذَا الْتَقَيْنَا، وَلَمْ يَعْصِفْ بِي الْجَذَلُ

أَبِالشَّبَابِ الَّذِي شَابَتْ حَدَائِقُهُ أَمْ بِالْأَمَانِـــي الَّتِي بِالْيَأْسِ تَشْتَعِلُ

فِـي هَـذِهِ اللَّوْحَـةِ يَحْكِـي شَـاعِرُنَا عَـنْ عَـدَمِ سُـرُورِهِ بِلِقَـاءِ عَامِـهِ (السَّـبْعِينَ)، وَالْوَاضِـحُ أَنَّـهُ جَعَـلَ مِـنْ نَفْسِـهِ فِـي هَـذِهِ اللَّوْحَـةِ سَـيِّدَةً مُسِـنَّةً شَـابَتْ، وَتَمَكَّـنَ الْيَـأْسُ مِنْهَـا، وَالْقَـارِئُ لِهَـذِهِ الْأَبْيَـاتِ يَلْحَـظُ أَنَّ الشَّـاعِرَ يُـدِيرُ مَعَـانِي الْقَصِـيدَةِ حَـوْلَ فِكْـرَةٍ وَاحِـدَةٍ، وَهِـي (رِثَـاءُ ذَاتِـهِ)، وَأَنَّ كُـلَّ جُزْئِيَّـةٍ فِـي هَـذَا الْوَصْـفِ لَهَـا دَلَالَتُهَـا الْخَاصَّـةِ، وَمِـنْ ثَـمَّ تَكُـونُ هُنَـاكَ وِحْـدَةٌ مَـا بَـيْنَ هَـذِهِ الْجُزْئِيَّـاتِ جَعَلَـتِ الصُّـورَةَ كُلِّيَّـةً مُتَرَابِطَـةً؛ وَمِمَّـا تَكْتَنِفُـهُ الصُّـوَرُ الْوَاقِعِيَّـةُ الصُّـوَرَ اللَّوْنِيَّـةَ، الَّتِـي يَلْجَـأُ فِيهَـا الشَّـاعِرُ إِلَـى الطَّبِيعَـةِ؛ فَيَسْـتَمِدُّ مِنْهَـا أَلْوَانًـا تُعَبِّـرُ عَـنْ أَجْوَائِـهِ النَّفْسِـيَّةِ، وَحَالَاتِـهِ الشُّـعُورِيَّةِ؛ فَاسْـتِخْدَامُهُ لِلَّـوْنِ الْأَصْـفَرِ، وَالْأَحْمَـرِ اللَّـذَيْنِ تَمَـثَّلَا فِـي لَفْظَتَـي: (شَـابَتْ– تَشْـتَعِلُ) يَـدُلَّانِ عَلَـى صِـرَاعٍ يَعِيشُـهُ شَـاعِرُنَا يَتَـرَاوَحَ مَـا بَـيْنَ الشَّـيْبِ الَّـذِي أَصْـبَحَ عَلَيْـهِ، وَالْيَـأْسِ الَّـذِي يَشْـتَعِلُ، وَيَـزْدَادُ مُصَـاحِبًا لِهَـذَا الشَّـيْبِ؛ فَلِكُـلِّ لَـوْنٍ إِشَـارَاتٌ زَائِـدَةٌ عَـنِ الدَّلَالَـةِ الْأَصْـلِيَّةِ لِلَّـوْنِ فِـي الْحَاسَّـةِ الْبَصَـرِيَّةِ، غَيْـرَ أَنَّـهُ اهْـتَمَّ أَيْضًـا بِـالْجَمْعِ مَـا بَـيْنَ الصَّـوْتِ وَالْحَرَكَـةِ؛ فَالصَّـوْتُ تَمَثَّـلَ فِـي لَفْظَـةِ (أَوَّاهُ) مُعَبِّـرًا عَـنْ أَسَـفِهِ وَحُزْنِـهِ عَلَـى مَـا مَضَـى مِـنْ عُمُـرِهِ، وَالْحَرَكَـةُ تَمَثَّلَـتْ فِـي لَفْظَـةِ (الْتَقَيْنَـا)، وَأَرَادَ مِـنْ خَلْفِهَـا انْقِطَـاعَ الْأَمَـلِ لَدَيْـهِ، وَمِمَّـا أَضْـفَى مَزِيـدًا مِـنَ الْحُسْـنِ عَلَـى تِلْـكَ اللَّوْحَـةِ هُـو سَـعْيُ الشَّـاعِرِ إِلَى نَقْلِ مَشَاعِرِهِ الْمُتَّخِمَةِ أَلَمًا وَأَسَى إِلَى الْمُتَلَقِّينَ.

وَأَخِيـرًا يُمْكِنُنِـي الْقَـوْلُ: بِـأَنَّ الشَّـاعِرَ قَـدْ خَـرَجَ شَـذْوُهُ مُعَبِّـرًا عَـنْ دَوَاخِلِـهِ؛ فَرُئِـيَ مُتَلَوِّنًـا بِـأَلْوَانٍ انْفِعَالِيَّـةٍ شَـتَّى، هَـذِهِ الْأَلْـوَانُ الشُّـعُورِيَّةُ الْمُتَقَابِلَـةُ شَـكَّلَتْ صُـوَرًا حَمَلَـتْ إِلَيْنَـا مَـا تَضْـطَرِبُ بِـهِ نَفْـسُ الشَّـاعِرِ، وَمَـا يَظْهَـرُ مِـنَ الْأَبْيَـاتِ مِـنْ أَلَـمٍ،

وَحُـزْنٍ، وَبُكَـاءٍ، وَفِـرَاقٍ، وَوِحْـدَةٍ، وَكُـلِّ مُرَادِفَـاتِ الْأَسَـى؛ فَبَرَاعَتُـهُ تَكْمُـنُ فِـي مَـدَى مَقْدِرَتِـهِ عَلَـى الـدَّمْجِ بَـيْنَ هَـذَيْنِ الْعَـالَمَيْنِ (عَـالَمِ الْأَحْيَـاءِ، وَعَـالَمِ الْأَمْـوَاتِ)، وَتَوْظِيـفِ عَنَاصِـرِ الصُّـورَةِ مِـنْ حَرَكَـةٍ، وَصَـوْتٍ، وَلَـوْنٍ فِـي الدَّلَالَـةِ عَلَـى مَشَـاعِرِهِ وَعَوَاطِفِـهِ، وَجَعْـلِ التَّشْـكِيلِ التَّصْـوِيرِيِّ حَـامِلًا لِدَوَاخِلِـهِ عَاكِسًـا لَهَـا. وَفِيمَـا يَـأْتِي يُمْكِنُنَـا تَوْضِـيحُ الصُّـورَةَ الْكُلِّيَّـةَ لَـدَى شَـاعِرِنَا، وَمَـا أُحِـيطَ بِـهِ فِـي كِتَابَتِـهِ لِـدِيوَانِ "حَدِيقَةِ الْغُرُوبِ"، وَرِثَاءِ ذَاتِهِ.

الْمَوْتُ

الْحُزْنُ الْجُرْحُ

الرَّثَاءُ الْفِرَاقُ

وَفِـي قَصِـيدَةِ ((Crossing the bar وَظَّـفَ أَلْفِرِيـدُ تِنِيسُـونَ عَنَاصِـرَ الصُّـورَةِ مِـنْ حَرَكَـةٍ (vowel)، وَصَـوْتٍ(voice)، وَلَـوْنٍ (color)،فَعُنْصُـرُ اللَّـوْنِ يَتَمَثَّلُ فِي قَوْلِهِ:

- When I put out to sea.
- And after that the dark.

فَجَـاءَ اخْتِيَـارُ الشَّـاعِرِ لِهَـذَيْنِ اللَّـوْنَيْنِ (الْأَزْرَقِ، وَالْأَسْـوَدِ)، اخْتِيَـارًا مُعَبِّـرًا عَـنْ إِحْسَاسِـهِ فِـي الـدُّنْيَا، وَإِحْسَاسِـهِ فِـي الْانْتِقَـالِ إِلَـى الْآخِـرَةِ، وَهِـي أَوَّلُ مَشَـاهِدِ الطَّبِيعَـةِ الْبَـارِزَةِ، الَّتِـي يُـدْرِكُهَا الْإِنْسَـانُ لِلْوَهْلَـةِ الْأُولَـى، دُونَ بَـذْلِ جَهْـدٍ، أَوْ عَنَـاءٍ؛ فَقَـدْ طَغَـى اللَّـوْنُ الْأَسْـوَدُ مَـعَ لَـوْنِ الْبَحْـرِ الْأَزْرَقِ عَلَـى الْقَصِـيدَةِ، مُعَبِّـرًا عَمَّـا يَخْـتَلِجُ إِحْسَـاسَ الشَّـاعِرِ وَنَفْسَـهُ، فَشَـكَّلَ "اللَّوْنَـانِ" صُـورَةً لَوْنِيَّـةً ذَاتَ دَلَالَاتٍ حَزِينَـةٍ،

وَأَبْعَـادٍ مُؤْلِمَـةٍ، وَحِـينَ يُسَـيْطِرُ اللَّـوْنُ الْأَسْـوَدُ عَلَـى الصُّـورَةِ الشِّـعْرِيَّةِ، يَبْـذُلُ الشَّـاعِرُ طَاقَتَهُ فِي اسْتِجْلَابِ مَا يُؤَكِّدُ هَذَا اللَّوْنَ، فَيَتَرَاءَى الْأَلَمُ وَالْأَسَي فِي قَوْلِهِ:

- When that which drew from out the boundless deep.

وَعُنْصُرُ الْحَرَكَةِ تَمَثَّلَ فِي قَوْلِهِ:

- But such a tide as moving seems asleep.

- To full for sound and foam.

- When that which drew from out the boundless deep.

- Turns again home.

- When I embark.

- When I have crossed the bar .

لَقَدْ رَسَمَ الشَّـاعِرُ مِـنْ خِـلَالِ هَـذِهِ الصُّـوَرِ الْحَرَكِيَّـةِ مَشْـهَدًا تَمْثِيلِيًّـا لِلطَّبِيعَـةِ الْحَزِينَـةِ، فَانْطَلَقَـتْ حُـرُوفُ الصُّـورَةِ تَقْفِـزُ إِلَـى مَخْيِلَتِنَـا وَنَحْـنَ نَتْبَـعُ تَحَرُّكَهَـا خُطْـوَةً بِخُطْـوَةٍ، وَيُسَـيْطِرُ عَلَـى الْجَـوِّ حَالَـةُ حُـزْنٍ وَأَسًـى؛ فَـلَا نَـدْرِي أَيْـنَ يَنْتَهِـي الْمَطَـافُ، ثُـمَّ تَظْهَـرُ النَّتِيجَـةُ بِحَرَكَـةِ عُبُـورِهِ إِلَـى الْمَرْفَـأِ (الْحَيَـاةِ الْآخِـرَةِ)، حِينَهَـا نُـدْرِكُ أَبْعَـادَ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحَرَكَةِ. وَعُنْصُرُ الصَّوْتِ تَمَثَّلَ فِي قَوْلِهِ:

- To full for sound and foam,

- Twilight and evening bell,

يَهْتَمُّ الشَّاعِرُ بِرَسْمِ صُورَةٍ صَوْتِيَّةٍ يَنْسِجُهَا مِمَّا تَلْتَقِطُهُ أُذُنُهُ، أَوْ يَتَخَيَّلُهُ شُعُورُهُ؛ فَتَتَمَاهَى فِي كَلِمَاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ لِتَخْرُجَ فِي حُلَّةٍ جَدِيدَةٍ. "وَالشِّعْرُ لَا يُنْسَجُ مِنَ "الْأَفْكَارِ"، بَلْ مِنَ الْكَلِمَاتِ ... فَالْقَصِيدَةُ تُوْجَدُ كَقَصِيدَةٍ فِي الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ كَأَصْوَاتٍ، لَيْسَ إِلَّا، وَإِنَّ مَعْنَى الْقَصِيدَةِ إِنَّمَا يُثِيرُهُ بِنَاءُ الْكَلِمَاتِ كَأَصْوَاتٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُثِيرُهُ قَصِيدَةٌ أَصِيلَةٌ، إِنَّمَا هُوَ حَصِيلَةٌ لِبِنَاءِ الْأَصْوَاتِ"[1] فَتَعَاضَدَتْ بَعْضُ مُكَوِّنَاتِ الصُّورَةِ الْكُلِّيَّةِ مِنْ صَوْتٍ، وَحَرَكَةٍ، وَلَوْنٍ، وَقَدْ بَدَتِ الْأَصْوَاتُ مُنْسَجِمَةً مَعَ الْحَرَكَاتِ وَالْأَلْوَانِ؛ لِتَخْرُجَ فِي مَشْهَدٍ مُتَنَاسِقٍ.

وَيَقُومُ تِنِيسُونُ عَلَى الْفَوْرِ بِرَبْطِ هَذِهِ الصُّوَرِ النَّمُوذَجِيَّةِ لِلنِّهَايَةِ بِصُوَرٍ لِاقْتِرَابِ الظَّلَامِ، وَرَحْلَةٍ بَحَرِيَّةٍ وَشِيكَةٍ؛ فَالْمَرْفَأُ الرَّمْلِيُّ الَّذِي "يَئِنُّ" عِنْدَمَا يَرْتَفِعُ الْمَدُّ هُوَ صُورَةٌ لِلْخَطِّ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَيُحَدِّدُ عِدَّةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الصُّوَرِ فِي الْقَصِيدَةِ، فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الصُّوَرِ الْخَيَالِيَّةِ الْمَرْئِيَّةِ مِثْلَ" غُرُوبِ الشَّمْسِ". وَنَجْمَةِ الْمَسَاءِ "فِي السَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَقْطَعِ الْأَوَّلِ، وَ" وَبَعْدَ ذَلِكَ الظَّلَامِ "فِي السَّطْرِ الثَّانِي، و"آمَلُ أَنْ أَرَى وَجْهَ الرُّبَّانِ وَجْهًا لِوَجْهٍ" وَذَلِكَ فِي السَّطْرِ الثَّالِثِ مِنَ الْمَقْطَعِ الْأَخِيرِ، هَذَا يُوَضِّحُ" تَسَلْسُلَ الْوَقْتِ "مِنَ الْعُمُرِ الْقَصِيرِ لِلْإِنْسَانِ، وَالصُّوَرِ الْحَرَكِيَّةِ الَّتِي تَمَّ إِدْخَالُهَا فِي قَوْلِهِ:" عِنْدَمَا خَرَجْتُ إِلَى الْبَحْرِ"، الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ، السَّطْرُ الْأَخِيرُ؛" لَكِنْ يَبْدُو هَذَا الْمَدُّ وَالْجَزْرُ نَائِمًا فِي حَرَكَتِهِ"، الْمَقْطَعُ الثَّانِي، السَّطْرُ الْأَوَّلُ ؛" وَعِنْدَمَا أُغَادِرُ "، فِي الْمَقْطَعِ الثَّالِثِ، السَّطْرُ الْأَخِيرُ؛ "عِنْدَمَا أَكُونُ عَبَرْتُ الْمَرْفَأَ"، الْمَقْطَعُ الْأَخِيرُ، السَّطْرُ الْأَخِيرُ، وَهَذِهِ الصُّوَرُ الْخَيَالِيَّةُ تُعَبِّرُ عَنْ رِحْلَةِ الْإِنْسَانِ نَحْوَ الْمَوْتِ، وَهُوَ يُبْحِرُ فِي الْمِيَاهِ الْهَادِئَةِ لِكَي يَصِلَ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَى الْهُبُوطِ وَعُبُورِ الْمِينَاءِ؛ أَي (الْمَوْتَ)، وَالْأُسْلُوبُ السَّمْعِيُّ فِي اسْتِخْدَامِهِ لِكَلِمَاتٍ مِثْلَ:"وَدَعْوَةٌ وَاحِدَةٌ"، الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ، السَّطْرُ

الثَّـانِي، وَ"جَـرَسُ الْمَسَـاءِ"، الْمَقْطَـعُ الثَّالِـثُ، السَّـطْرُ الْأَوَّلُ، هَـذِهِ الصُّـوَرُ – تُعَبِّـرُ عَـنْ إِدْرَاكِ الْإِنْسَـانِ فِـي حَالَـةِ الْـوَعْي بِـدَعْوَةِ اللهِ؛ فَهُـو يَسْـمَعُ أَنَّ اللهَ يَـدْعُوهُ لِعُبُـورِ الْمَرْفَـأِ، وَالصُّـوَرُ الْعُضْـوِيَّةُ فِـي 'لَا حُـزْنَ عَلَـى الْـوَدَاعِ' تُعَبِّـرُ عَـنْ شُـعُورِ الْإِنْسَـانِ فِي لَحْظَةِ الْعُبُورِ. إِنَّهُ يَأْمُلُ أَلَّا يَحْزَنَ أَصْدِقَاؤُهُ عِنْدَ مُغَادَرَتِهِ لِلْعَالَمِ الْآخَرِ.

وَتَمَثَّلَ الطِّبَاقُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ:

Sunset and evening star

But such a tide as moving seems asleep Too full for sound and foam.

Star × Sunset

Asleep × moving

فَيُقَابِـلُ الشَّـاعِرُ بَـيْنَ مَعَـانِي مُتَضَـادَّةٍ، تَشِـي بِقَلَـقٍ يَسْـتَبِدُّ بِعَـوَالِمِ الشَّـاعِرِ الدَّاخِلِيَّـةِ، وَتُصَـوِّرُ مَجَاهِـلِ نَفْسِـيَّتِهِ الْمُضْـطَرِبَةِ الْوَاجِفَـةِ الَّتِـي لَا تَكَـادُ تَتَبَـيَّنُ مَوَاضِـعَ هُـدَاهَا، وَمَـوَاطِنَ نَجَاتَهَـا؛ أَبِـالْمَوْتِ مَـعَ عِـرْضٍ مَوْفُـورٍ، أَمْ بِالْحَيَـاةِ مَـعَ عِـرْضٍ مَهْدُورٍ؟!

أَمَّا عَنْ لَفْظَةِ (bell)، فَهِي إِعْلَانٌ لِرَحِيلِهِ عَنْ طَرِيقِ:

الْأَشْخَاصِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ رَحِيـــــلِ السُّـــفُنِ إِلَى الْمِينَاءِ

فَفِـي نِهَايَـةِ الْقَصِـيدَةِ يُعَلِّمُنَـا الشَّـاعِرُ أَنَّـهُ لَا يَتَحَـدَّثُ عَـنْ رِحْلَـةٍ بَحْرِيَّـةٍ نِهَايَـةِ الْأَسْـبُوعِ، وَلَكِنَّـهُ يَتَحَـدَّثُ عَـنْ مَوْتِـهِ؛ فَهُـو فِـي النِّهَايَـةِ يَعْبُـرُ الْحَـاجِزَ الرَّمْلِـيَّ؛ لِيَصِـلَ إِلَى عُمْقِ الْمُحِيطِ؛ حَيْثُ الْحَيَاةُ الْأُخْرَوِيَّةُ، وَرُؤْيَةُ الْإِلَهِ وَجْهًا لِوَجْهٍ.

المصادر والمراجع

- إحسان عباس: فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، د.ت.
- ألفت كمال الروبى: الصورة الفنية فى شعر بشار بن برد، رسالة ماجستير، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٧٦م.
- أيمن ميدان (دكتور): الصورة الفنية فى الشعر الغرناطى، إلكوس للترجمة والنشر، ١٩٩٧م، د.ط.
- زينب فؤاد عبدالكريم: شعر محمد عبدالغنى حسن دراسة فنية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٩١م.
- خضر أبو جحجوح: البنية الفنية فى شعر كمال غنيم، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، ٢٠١٠م.
- شكرى عبدالوهاب: الإضاءة المسرحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، د.ط.
- صلاح محمد عبدالحافظ (دكتور): الصنعة الفنية فى شعر المتنبى، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٨٣م.
- علي صبح: الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، الجزء الأول، ٢٠١٠م، د.ط.
- غازي القصيبي (دكتور): ديوان حديقة الغروب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.
- ـــــــــــــــ:"سيدتي السبعون" قصيدة منشورة على موقع جريدة الجزيرة الإلكتروني، عدد ١٣٦٧٤، بتاريخ: الأحد ٢١ ربيع الأول ١٤٣١هـ، الموافق ٧-٣-٢١٠.

- كمال أبا مصلح: الكامل فى النقد الأدبى، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م، د.ط.
- محمد زكى العشماوى (دكتور): قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث، دار الشروق، ط١، ١٩٩٤م.
- محمد غنيمى هلال (دكتور): النقد الأدبى الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٧م، د.ط.
- محمد الصادق عفيفى: النقد التطبيقى والموازنات، مؤسسة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨م.
- نصر عطا الله: ما الشعر؟ سيسل داى لويس تر، مجلة الشعر، العدد الأول، ١٩٦٤م.
- يحيي حمودة (دكتور): نظرية اللون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، د.ط.
- يوس ف نوفل (دكتور): الصورة الشعرية والرمز اللونى، دار المعارف،١٩٩٥م، د.ط.
- Dr: Raghukul Tilak, Studies in poets Alfred Tennyson, published by Rama Brothers, Bank street, Karol Bagh, New Delhi, Fifteenth Edition, 1997, p.156, And The Victorians) an Anthology Poetry & Poetics:(Edited by Valentine Cunningham, P.294 .